الفصل الأول

الغرب الإسلامى
والحضارة العربية الإسلامية

عدد محدود فحسب بين مؤرخى الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى استطاع فيما يبدو، حتى هذه اللحظة، أن يفسح المجال لتعبير سهل، وواضح الدلالة، كى يأخذ مكانه من الحياة، هذا المصطلح هو تعبير «**الغرب الإسلامى**»، والذى أود قبل أى شىء أن أدافع عنه، وأن أبرر استخدامه الذى شاع منذ عهد قريب، وهو ينصرف إلى مجموعة جغرافية بالغة التناسق فيما بينها، وتقع على جانبى غربى البحر المتوسط، وتمتد حتى سواحل الأطلنطى وتشمل شمال إفريقيا وشبه جزيرة إيبريا.

مثل هذا التعبير يتميز بأنه يثير فى شىء من الوضوح، حتى فى سمع من هم على حظ متواضع من الثقافة، جملة أشياء متناسقة نسبيا، خليطا يمكن أن نميز بين عناصره الجوهرية فى سهولة تامة. فالغرب الإسلامى مساحة من العالم القديم توطد فيها الإسلام، حاملا معه بناءه الاجتماعى إلى أهلها، ومثله الخلقية، والثقافة التى

يمثلها، ولكن هذه الأرض فى الوقت نفسه نائية، وبعيدة عن مركز الإسلام بالنسبة إلى غيرها من المناطق التى شهدت ظهوره، وطلائع وثبته الرائعة التى بلغها فيما بعد.

كان الناس من قبل، وبعضهم لما يزل حتى اليوم، يطلقون عليه اسم «المغرب»، وهو تعبير يبدو للوهلة الأولى أنه يماثل تماما قولنا «الغرب الإسلامى» ويفضله فى أنه لم ينتظر حتى عصرنا هذا ليدخل دائرة المصطلحات الجغرافية عند العرب. ولكن، هل نحن فى حاجة لأن نذكر أن اسم «المغرب»، وكان فيما يبدو يعنى بلاد البربر وإسبانيا فى الأيام الأولى، إنكمش معناه سريعا فلم يعد يشمل غير غرب شمال إفريقيا، ولم تعد تونس الحالية، أو أفريقية كما تعرف فى المصادر العربية القديمة، وشبه جزيرة إيبريا، أو أندلس العرب، من باب أولى، تدخل فى نطاق مفهومه.

يمكن القول إن هذا مجرد جدل لفظى بحت، لأن شمال إفريقية وإسبانيا ارتبطا، وهو أمر منطقى وطبيعى، بعلاقات سياسية، وصلات ثقافية، يقتضيها وينميها تجاورهما الجغرافى وبخاصة عندما أخذت العقيدة الدينية المشتركة توجه، وحتى توحد، عند الجانبين بعض مطامحهما المشتركة. ولكن ذلك لم يحل دون أن يكون لكل واحد منهما كيانه المنفصل، ونظامه المتميز، وأمراؤه المستقلون به، ويتبادلون العداوة أحيانا مع أمراء البلد الآخر، وله أخيرا مثله الأعلى، ولم يستطع الإسلام أن يجعله مشتركا على الدوام، ويمكن

أن نؤكد أن مثل هذه الأخطار ليست خاطئة كلها، ومع ذلك لا تمثل أيضا الحقيقة الدقيقة بصدق، لأن الغرب يؤلف وحدة فى نطاق العالم الإسلامى، فى جانب من أقصى طرفيه، عالما قائما بذاته، أقرب ما يكون إلى أوربا المسيحية من جانب، وبعيدا معزولا عن الشرق بالمسافات الشاسعة، والعوائق الطبيعية من جانب آخر، ومثل هذه الظروف كثيراً ما كانت شديدة الوطأة على مصائره السياسية، وأكثر من ذلك تركت تأثيراً بالغا فى أوساطه الاجتماعية وفى ثقافته.

ومن الضرورى أن يعيش المرء أعواما طويلة فى بلد كالمغرب، لما يزل يحتفظ بطابع حضارته فى العصر الوسيط كاملا غير منقوص، وأن يقيم فى جنوب إسبانيا زمنا، وأن يكون شغوفا باستنطاق الآثار العربية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة خلال الجو الرقيق المثير الذى تسبح فيه، ليشعر حقا أن بين ما كان وانتهى، وبين ما بقى ولم يذهب، ليس مجرد مظهر بسيط غامض من مظاهر القرابة بينهما. وقبل كل شىء، يجب ألا يتنكر للحدس الفجائى الذى يثيره فى ذهنه أحياناً التعامل العميق والمستمر مع النصوص الأصلية، وألا يبعد عند الرؤى العابرة التى ترتسم إجمالا، إثر اتصاله بالوثائق التى ينشدها، وتشف فيما بعد، على نحو دقيق، فى الصور الحاضرة والعائلية.

حينئذ نشعر، بدءاً فى غموض، أن هذه القرابة ليست

عارضة، ولا يمكن أن تكون كذلك، وسرعان ما تتزاحم وجوه الشبه وتتحدد، وتفرض نفسها. ويبدو الغرب الإسلامى فى جانبيه الإفريقى والأوربى شيئا فشيئا، عبر العصر الوسيط، من خلال ألوانه الحقيقية، بريئا من الصور الغبراء التى كومها على تخومه مؤلفو المدونات الصفراء، والذين أوقفوا فضولهم على الحوادث المختلفة المتصلة بالأسر الحاكمة وحدها.

وسنكتشف حينئذ أنه على الرغم من صروف الدهر أثناء حروب الاسترداد المسيحية ظلت العاصمة الثقافية لهذا الغرب فى إسبانيا دون انقطاع : فى قرطبة أولا، ثم عواصم مقاطعات أخرى متعددة فيما بعد، وفى غرناطة أخيراً.

وندرك أن أرض الأندلس، مهما كان مركزها السياسى، لم تفقد أبدا منزلتها كزعيمة للفكر، واحتفظت بكل إشعاعها، حتى بعد أن خضعت فى عهدها الإسلامى للحكم الإفريقى من المرابطين والموحدين، وسرعان ما فتنت سادتها الجدد فاستسلموا لسحرها، وجعلوا منها محل إقامتهم المفضلة. وفيما بعد سيحدث الشىء نفسه لأولئك الغزاة الجفاة من القشتاليين، وستكون لهم، كما كانت لأولئك من قبل، ما كانته أثينا بالنسبة لروما عندما غدت مقاطعة من الإمبراطورية الرومانية، ولنتذكر كلمات الشاعر اللاتينى، ونأتى عليها هنا : «إن اليونان المغلوبة غزت قاهرها الضارى».

ولكن مصطلح «**الغرب الإسلامى**»، لا يجد من يرفضون

مفهومه الخاص فحسب، وإنما له خصوم آخرون كثيرون فى أوربا، وحتى بين المتخصصين اللامعين فى دراسات العصور الوسطى، يرون أن شمال إفريقيا وإسبانيا كليهما، كل واحدة من جانبها، لا تشكلان غير امتدادات بعيدة، وظلال شاحبة، لمشرق الإسلام. هذا المشرق الذى يجب أن نعترف بأنهم أنفسهم يجهلونه، وأساءوا فهمه كثيرا، ولم يقدروا أبدا فى إنصاف الدور الراجح الذى لعبه فى اقتصاد البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الوسيط، وبخاصة منذ انهيار العالم القديم حتى العصر الذى شهد غروب القرون الوسطى، وتفتحت عيونه على بشائر النزعة الإنسانية الناشئة. وهذا الزعم الباطل نفسه، ولما يذهب تماما، جعل كثيرا من المؤرخين يُقدرون بيزنطة «مقارنة بذكريات روما الظافرة»[1]، ودفع بهم ألا يروا فى المغرب والأندلس، خلال العصر الوسيط، سوى امتداد هزيل، وانحطاط سياسى عميق، لعصر الإسلام الذهبى فى المشرق، ومآثره فى سورية والعراق ومصر ثابتة ومدوّنة. ولم يخطر ببال هؤلاء المؤرخين ولو للحظة واحدة، وبخاصة فيما يتصل بإسبانيا، أن يحاولوا إظهار القدر الهائل الذى اضطلعت به فى تطوير العالم الأوربى إبتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، وفى تحسين بعض جوانب الحياة المادية، خصوصا ودون أى شك فيما فرضته من الإحساس شيئا فشيئا بطابع جمالى جديد للحياة، وكان يسيطر عليها حتى ذلك الحين، تحت رهبة الخوف من المجهول، صوفية تنضح تشاؤماً جافيًا.

وكل هذا يجلعنا نلحظ أن كل ما يوحى به تعبير «**الغرب الإسلامى**» فى حد ذاته، وما يحتاجه من تصرف، شأنه فى ذلك شأن الاعتبارات الأولى التى نحاول جاهدين أن نبرهن عليها. ولا يمكن الشك بأن الحضارة التى ازدهرت فيه خلال القرن العاشر يمكن أن نطلق عليها اسم «**الحضارة العربية الإسبانية**» لأنها نشأت وليدة تأثرات مختلفة فى شبه جزيرة إيبريا نفسها، وفاضت بكاملها، وامتدت على نطاق واسع إلى المغرب وليس، كما يظن أحيانا فى جانب واحد فحسب من أجمل جوانبها، وهو الفن المسمى بالفن الإسبانى العربى، والعناصر الرئيسية التى تتألف منها هذه الحضارة العربية الإسبانية تكوّن الخطوط العامة التى تمنحها كل الأصالة فى مختلف جوانبها، ونحاول الآن توضيح هذه الخطوط فى نظرة سريعة ومجملة.

غير أن هذه الدراسة تبقى ناقصة إذا لم تصحبها عمليات سبر جانبية لنعرف أولا ما التأثيرات المباشرة، قلّت أم كثرت، التى مارسها المشرق من خلال الإسلام فى العالم الغربى، وما التأثيرات التى باشرها الغرب، وهى أضيق نطاقا دون أدنى شك، فى المشرق، ومن جانب آخر، ما الفهم المتبادل بين الإسلام الإسبانى والمسيحية فى العصور الوسطى؟ تلك المشاكل الخاصة نطرحها بإيجاز، ونحاول أن نجد بعض عناصر حلها.

من الصعب دائما، وقد يكون تهورا، أن نتصدى لدراسة هذه

الحضارة العربية الإسبانية دون أن ننظر إليها أولا، ولو من خلال بعض الأمثلة البسيطة؛ فى نطاق إطارها الطبيعى ذاته، ودون أن نشير ولو بصورة موجزة إلى تتابع الظروف السياسية التى سهلت نشوءها وازدهارها. وبدون هذا قد نجازف بألاّ نفهم بوضوح ماذا كان مدى انتشارها، أولا فى داخل حدود شبه الجزيرة نفسها، وفيما بعد فى شمال أفريقيا، وقد يحدث لنا الشيء نفسه فيما يتصل بالتأثيرات المختلفة التى انحدرت إليها من المشرق، وأخيراً الضغط غير المباشر الذى مارسته بدورها على الغرب الأوربى.

***

يكاد يكون من المتفق عليه عند الحديث عن **شبه الجزيرة الكبرى**، والتى تضم **إسبانيا والبرتغال** حاليا، بأنها ذات جغرافية معقدة، ولعل بلداً آخر لا يكوّن كتلة كهذه فى وضوح حدودها الطبيعية، ولكن أيضا ما من بلد آخر يفوقها فيما تقدم من تناقضات داخلية، سواء فى شكلها الطبيعى أو فى مناخها، أو حتى فى خصوبة أرضها، ومن جانب آخر، ولقد أشير إلى هذا مراراً، يتجلى وجه الشبه العميق بين جنوب إسبانيا وشمال المغرب فى تكوينهما الأرضى، ولا يفصل بينهما إلا حاجز مائى عميق، ولكنه ضيق الاتساع، وعندما يجتاز المرء هذا الحاجز، وأعنى به مضيق جبل طارق، من أى جانبيه شاء، تأخذه الدهشة بما يرى من تشابه يكاد يكون تاما بين البلدين. فهناك كما هنا سلاسل من الجبال

العالية تغوص آخر ثناياها فى البحر المتوسط، ونجد فى كلا الجانبين المزروعات والخضروات والبساتين والفواكه وحقول الزيتون، وبعيداً، فيما وراء هذه الجبال، يزداد التشابه وضوحا، إذا جاز لنا القول، فوديان **الأندلس** الغنية لها ما يقابلها فى سهول **المغرب الخضراء**، وإذا توغلنا أبعد من هذا فسوف نلتقى فى شبه الجزيرة بمرتفعات لامنتشة وقشتالة الجديدة، ولها ما يقابلها فى مرتفعات المغرب الوسطى، وهى ملامح قوية الشبه فيما بينها، ويطلق عليها التقنيون الإسبان الاسم نفسه، وهو meseta بمعنى نجد أو هضبة. وماذا عن أوجه التشابه بين جوانب الحياة فى المدن؟ يكفى أن نذكر أنه لا توجد مدينة فى المغرب يسكنها الموريسكيون المسلمون، وهم الذين طردوا من إسبانيا، أو يشغلون حيا منها، إلا واحتفظت فى شغف بالغ بطابع الحياة فى المدن الأندلسية.

أما الدخول إلى **شبه جزيرة إيبريا** من الشمال فيتم غالبا عبر أحد جانبى جبال البرانس، ومنذ اللحظة التى يبدأ فيها السير نحو الجنوب، يُوخذ المرء بالتناقض بين المناظر الطبيعية، تناقض يبلغ حد التنافر أحياناً، وقليلا قليلا تتلاشى سهول قشتالة المتقشفة العظيمة، وشيئاً فشيئاً تكسو الابتسامة وجه إسبانيا الشمالية العبوس، ابتسامة تصبح ضحكة عريضة حين نبلغ الأندلس، أرض المسلمين المفضلة، وعاشوا فيها ثمانية قرون. والحق أن هذه

المشاعر لم تغمرنى شخصيًّا عندما وطئت أرض إسبانيا للمرة الأولى، دخلت إليها من أقصاها الجنوبى، بعد أن أبحرت من المغرب مباشرة، أى من بلد محافظ بقوة، ولا يزال يحتفظ بغيرة شديدة على الإسلام، ومع ذلك لم يداخلنى الشعور أبداً ساعتها أننى انتقلت إلى عالم مختلف. فالوديان العميقة، والضياع المعلّقة فى سفوح الجبال العالية، والمناخ، ومشاهد الشارع فى المدن الصغيرة، وحتى أوضاع الناس، وكل ذلك يتشابه على نحو مدهش، ولولا الملابس التى يرتديها الأندلسيون الآن وطريقتهم فى الحديث، لأصبح شعور المرء بأنه لم يعبر غير ممرّ مائى، وأنهّ لمّا يزل فى أفريقيا، وهماً كاملا. إننا نفهم بسهولة، فى إطار طبيعى يقدم ألوانا عظيمة من المشابهات، أن حضارة مشتركة سوف تتوافر لها كل الشروط لكى تقوم بدورها.

وفضلا عن ذلك وجد شمال أفريقيا نفسه مدعوًّا، منذ أن فتح العرب إسبانيا، لكى يلعب دوراً بالغ الأهمية فى إعادة تعمير شبه الجزيرة بالسكان، لأن العلاقات التاريخية بين البلدين خلال العصر الإسلامى تعود إلى أيام الإسلام الأولى، وبدأت منذ نهاية القرن الأول للهجرة. ولقد كان بربر المغرب هم الذين تولوا عملية الفتح أولا، وتم ذلك لحساب المشرق الإسلامى، ومنذ اللحظات الأولى بدأ الأندلس يستقبل أفواجاً عديدة من العرب الخلّص، ولكنه فى الوقت نفسه استقبل أعداداً أكثر من الأفارقة

المسلمين. ولم يلبث أولئك وهؤلاء أن تمازجوا مع السكان الأصليين[٢]، باستثناء بعض القرى الصغيرة المنعزلة فى الجبال، واستعصى سكانها على التحوّل والامتزاج زمناً طويلا.

وقد شكلّ الوافدون من العرب نواة الأرستقراطية والبرجوازية فى المدن، وسرعان ما تلقوا إمدادات بالغة الأهمية من المسلمين الجدد، أى من سكان شبه الجزيرة الأصليين الذين تزايد دخولهم فى الإسلام، دين الفاتحين، بمحض إرادتهم فى معظم الحالات، هروباً من الجزية، أو رغبة فى حياة مادية أفضل، ونتج عن ذلك، وبسبب التزاوج بين الجانبين، أن ازدادت الصلات وثوقاً وتماسكاً على مرّ الزمن بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد. ولقد، أشرت فى مؤلف صدر لى من قريب جدًّا، إلى أن عرب الأندلس الذين كانوا يزهون فخراً فى القرون الأولى، التى أعقبت الفتح، بأصولهم العربية فى شبه جزيرة العرب أو الشام، يتدفق عبر عروقهم جميعاً قدر غير قليل من الدم الإسبانى، وخارج دائرة الشك الآن أن عصر خلافة قرطبة شهد تمازجاً عنصرياً هاماً، فى المدن على الأقل، بين العرب الخلّص والبربر والمولدين[٣].

ولدينا الفرصة عندما ندرس التأثيرات المختلفة التى سيؤدى تشابكها إلى مولد حضارة عربية إسبانية أصيلة، أن نحدد الدور الذى اضطلع به عرب المشرق الذين هاجروا إلى أسبانيا، والدور الموازى له، وقام به المولدون من السكان الأصليين، وبخاصة فى

الجانب الاقتصادى من هذه الحضارة، غير أننا سنقتصر الآن على إبراز النتائج الخصبة التى أدى إليها التمازج العنصرى الذى أشرنا إليه من قريب. فمنذ نهاية القرن الثالث الهجرى تقريباً، أو العقد الأول من القرن الذى تلاه فى أبعد الأحوال، كيّفت مجموعة من الشعب الإسبانى حياتها مع موطنها الجديد، وأصبحت تكوّن نواة بالغة الأهمية فى نطاق شعب إسبانيا الإسلامية، وأخذت هذه النواة تتزايد باستمرار، سواء من توالى الدخول فى الدين الجديد، أو عن طريق موجات كبيرة من المهاجرين، وامتدت لزمن لا بأس به، وجذبت إلى شبه الجزيرة أولئك الراغبين فى ترك أوطانهم، طواعية أو مكرهين.

هذا الشعب الأندلسى المسلم بدأ عفويًّا يحس بأصالته الذاتية والواقعية فى مطامحه السياسية، وأشد من ذلك وأقوى فى حياته الثقافية. ومع ذلك لم يلبث المتعلقون بالإسلام وشريعته، ومثله الدينى الأعلى، تعلقاً ودوداً وشديداً، أن تميّزوا على نحو واضح، فى أهم مظاهر حياتهم اليومية، ونماذج أزيائهم، وطريقة ارتدائها، وفى مهاراتهم الحرفية والزراعية، لكى يبدو سريعاً أمام أنظار بقية العالم الإسلامى، لا كغرباء عنه، وإنما على الأقل كأقارب بعيدين، كأشقاء باعد بينهم تراخى الروابط العائلية، وإقامتهم النائية.

وقد ساعدت الظروف السياسية الوقتية على هذا النوع من

الانفصال المعنوى، ومضى يكبر مع الزمن شيئاً فشيئاً، عندما تهاوت أول إمبراطورية عربية فى المشرق، وأدى ذلك إلى انفصال إسبانيا الإسلامية عنها، واستقلالها عن سادتها البعيدين، وقدمت نفسها إلى واحد من أحفاد الأسرة التى انتزُعَتْ منها الخلافة، وأقامت لنفسها منذ ذلك الوقت أسرة حاكمة خاصة بها، واستقلت بنفسها عن أفريقية وآسيا معاً.

* * *

لم يكن تاريخ إسبانيا الإسلامية فى الواقع حتى نهاية القرن الثامن الميلادى، أقل غموضاً من تاريخ بلاد البربر فى الغرب، فهنا وهناك ولاة من العرب أنفسهم، مهمتهم أن يعملوا، أو يحاولون أن يعملوا، على بث احترام سلطة رئيس الجماعة الذى يقيم فى دمشق، وما لبث أن أصبح مجرّد سلطة اسمية فى وقت قصير. ولم يكن الغرب الإسلامى يشكّل فى ذلك غير مجموعة من المقاطعات فى إمبراطورية مترامية الأطراف، لم يطل بها الأمر حتى تفكّكت أوصالها، وتحوّلت إلى مجموعة من الإمارات المستقلة، وسرعان ما أتيحت الفرصة المناسبة أمام مؤسسى هذه الممالك، عندما أتى ردّ الفعل العباسى على البناء الأموى، ومالت سوريا ودمشق فى موقفهما الراجح إلى جانب العراق وبغداد.

صحب هذا التغيير فى نظام الحكم اضطرابات عديدة وعنيفة

بالضرورة، وارتحل عن المشرق كثيرون من العرب الساخطين والمتذمرين، وكبار ذوى المراتب السابقة، وممن فقدوا امتيازاتهم وأعطياتهم، وكل هؤلاء جذبهم الغرب إليه. ومن بينهم أمير من البيت المروانى نفسه، رحل يبحث عن حظه فى أقصى طرف من العالم الإسلامى غرباً، وكان المغرب حينئذ مقراً جميلا ومرغوباً، غير أن الإسلام أصيب فيه بنكسة عابرة، ذلك أن قبائله ما كادت تعتنق الإسلام حتى بدأت تعمل بقوة فى الدعوة إلى مبادئ الخوارج، واستطاعت أن تسترد استقلالها القديم بقوة السلاح.

كان الأموى القادم **عبد الرحمن بن معاوية**، وحمل لقب **الداخل** فيما بعد، حفيد هشام بن عبد الملك، ولحظ أن المجال فى شمال أفريقيا غير ممهد له، وأن الريح غير مواتية هناك، فولىّ وجهه شطر إسبانيا، وما لبث أن استولى عليها، وأطاح بحكم الوالى العربى الذى كان يديرها من قرطبة كأمير مستقل، ولو أن سلطته كانت واهية، وبالغة الضعف، وأقام على أنقاضه دولة الأمويين فى إسبانيا، وحققت مع الزمن مجدًا تليداً، وإن شئت الدقة، أعاد فى أقصى نقطة من الغرب الإسلامى بناء دولة أجداده التى ازدهرت فى دمشق، ومنذ عام ١٣٨ هـ - ٧٥٦م أصبح سيد قرطبة، وجعل منها عاصمته، ووقف عليها جهده، لكى تأخذ طابع العاصمة المشرقية التى طرد منها، فعل ذلك ولما يمض غير نصف قرن وسنوات على نزول أوّل دفعة من العرب الفاتحين.

وبهذا بدأت التقاليد السورية تسود فى إسبانيا، وسبق لها أن أخذت طريقها من قبل بقدوم الجند السوريين مع بِشْر بن بَلجْ القشيرى، فى ظروف سوف تتاح لنا الفرصة فيما بعد للحديث عنها.

وبعد ذلك بقليل قدم أيضاً إلى الجانب الإفريقى من مضيق جبل طارق شرقىّ آخر هارب، وهو إدريس بن عبد الله، الذى ينحدر من سلالة الرسول، فهو من أبناء أحفاد الحسن، جاء يبحث عن قدره فابتسم الحظ له، وسيساعد ابنه من بعده إدريس الثانى، والذى قرر فى عام ١٩٢ هـ-٨٠٨م أن يزيد فى امتداد مدينة فاس، والتى أسسها والده عام ١٧٣ هـ- ٧٨٩م، وأعدها لتصبح عاصمة مملكته، وأسكنها عناصر مدنية مختلفة، جاءتها بعد أن تخلّت مكرهة عن مساكنها الخاصة بها فى المدن الأخرى، نتيجة بعض الظروف السياسية الخاصة، وكان أهل القيروان أول مَن وصل مِن إفريقية، أو تونس فى لغة الجغرافية الحديثة، جاءوا نشوى بمؤثرات مشرقية واضحة، وتلاهم مباشرة أهل الربض من قرطبة، أولئك الذين أجلاهم الأمير الأموى الحكم الأول عن إسبانيا عام ٢٠٢ هـ-٨١٧م إثر ثورة قاموا بها، فاستقر بعضهم فى مدينة فاس، بينما آثر آخرون من رفاقهم التعساء، والأبعد همّة، أن يواصلوا سيرهم إلى المشرق بحثا عن المغامرة بعيداً، فحطوا رحالهم فى مدينة الإسكندرية، واستولوا عليها على حين

غفلة من أهلها، ثم أجلاهم الخليفة المأمون عنها، فانتهى بهم المطاف إلى الإقامة فى جزيرة كريت، حيث أقلقوا الدولة البيزنطية لسنوات طويلة[٤].

ومع سير الزمن سجّل القرن التاسع الميلادى على امتداده، فى إسبانيا الإسلامية وفى المغرب على السواء، فترة حافلة بكثير من الاضطرابات، وخلاله أنفق أمراء قرطبة كل جهدهم لنشر السلام، وإعادة الأمن والنظام فى دولتهم. ومن جهة، أخرى عرف عصر عبد الرحمن الثانى فترة طويلة من هدنة نسبية، وشهد نشاطًا فكريًا غَذته التأثيرات العباسية غير المباشرة، وستتاح لنا الفرصة لنبرهن على ذلك، وكان على الأمويين أن يواجهوا الثورة الخفية التى بدأت تخفق بها قلوب مواطنيهم، والتفّت حولها الأغلبية من رعاياهم، وقد تخلىّ كبار قوّاد الجند من الأرستقراطية العربية عن مسئوليتهم، بينما بسط البربر الذين يقطنون الجبال يد العون، شأنهم فى ذلك شأن العرب الذين يقيمون فى السهول، إلى الحركات الوطنية التى شنها المسلمون الجدد، بمساعدة العناصر المثيرة من جماعات المستعربين.

وكثيرًا ما كان الخطر بالغًا، ووجد أمراء قرطبة أنفسهم وهم يتحركون وسط ظروف بالغة الصعوبة، وبدا التاريخ السياسى للبلد حينئذ، كل التاريخ، مُهدَّدا بسيطرة المولدين والمسيحيين عليه من جانب، وفى الوقت نفسه تحاصره الأخطار التى يثيرها

أحفادِ العرب والبربر الوافدون من جانب آخر. وليس من الضرورى إذن أن نشير إلى أن الثقافة الأندلسية عانت خلال هذه الفترة نفسها من بعض الضعف، وهو أمر منطقى، لأنها بالكادْ كانت قد تجاوزت سن التكوين والنمو.

غير أن الوضع السياسى أخذ يتبدّل منذ السنوات الأولى للقرن العاشر الميلادى، أو الرابع الهجرى إذا شئت، وسجّل هذا القرن أوج ازدهار الحكم الأموى فى إسبانيا، واقترن باسم أمير عظيم، وهو **عبدالرحمن الناصر**، وترتبط فترة حكمه الطويلة فى الحوليات والمدوّنات الإسلامية لمؤرخى شبه الجزيرة بالازدهار الرائع فى كل مظاهر الفكر، وفى الوقت نفسه كانت فترة استقرار سياسى، وسلام داخلى، ليس لهما شبيه حتى ذلك التاريخ. وقد انطوى الغرب الإسلامى على نفسه، إذا جاز التعبير، وكان يشمل حينئذ جانباً كبيراً من المغرب يتبع قرطبة مباشرة، فقطع الجسور الواهية التى كانت تربطه نظريًّا ببقية العالم الإسلامى.

والقرار الذى اتخذه **عبد الرحمن الناصر** بألاّ يواصل احترام ما يُدعى «برمز الخلافة»[٥]، على نحو ما كان يفعل هو شخصيًا على امتداد سنوات سبقت، وما سار عليه أسلافه من قبل، أبلغ شاهد على هذا الانطواء. وهكذا فصل الدولة الأموية الإسبانية عن بقية «دار الإسلام»، والتى كانت كلها تخضع من حيث المبدأ لسلطة الخليفة الروحية، كرئيس للجماعة الإسلامية، ولقد كان

يزعج الأمير العظيم أن يظل اسم الخليفة فى بغداد يذكر من على منابر بلاده فى خطبة الجمعة، دون اسمه هو، ولهذا قرر فى عام ٣١٧هـ - ٩٢٩م أن يحمل الألقاب السامية التى كان يحملها أجداده من قبل فى دمشق قبل قرنين مضيا من الزمان : الخليفة وأمير المؤمنين[٦]. ولم تكن قيمة هذا الملمح حينئذ رمزية فحسب، أو مجرّد خطوة سياسية فقط، وإنما إلى هذا التاريخ نفسه تعود بداية تأصل الحضارة العربية الإسبانية وامتدادها، وكانت حتى هذه اللحظة نشوى بالمؤثرات الشرقية، ثم واصلت سيرها متوهجة متألقة على مر العصور.

كان القرارُ الذى اتخذه خليفة قرطبة الجديد بإعلان استقلاله السياسى، وصدارته الروحية، فى مواجهة بقية العالم الإسلامى، وليد قلق فطن، ومن الضرورى أن نعترف له بهذا، أثاره ظهور الحركة الفاطمية وانتصاراتها الرائعة فى شمال إفريقية، وفى تلك الفترة كان العديد من البلاد الإسلامية يشهد تفجرّ نوع من حُمّيا الانشقاق، ورواج المذاهب السرية الجديدة، وكثيرًا ما كانت تستخدم لدعم الثورات السياسية، وحتى اللحظة التى أتم فيها الفاطميون فتح مصر، وفيها الكثير مما أغراهم بأن ينتقلوا إليها، وأن يتخذوا منها مقرًا نهائيًا لهم، وأصبح عواهل إفريقية الجدد، وسادة كل شمال إفريقيا فى الواقع، وصقلية ووادى النيل، يمثلون خطرًا جسيمًا يتهدد الإمبراطورية الأموية فى إسبانيا عن قرب.

أصبح أمير قرطبة العظيم على رأس إمبراطورية ممتدة الأطراف، مزدهرة وغنية، وآهلة بالسكان، ويغمرها السلام من كل جانب، يمثل فى الغرب تقاليد الإسلام فى أيامه الأولى، والسنة الدينية المستقيمة، فلا بدع إذن أن يهتم بالخطر الفاطمى الذى يتهدّده، وأن يتخذ كل الوسائل الممكنة لتجنبه، وأن يرقب الموقف بعناية، حتى لا يغرق الفاطميون ولاياته بفيض من دعاتهم السريين المهرة، يثيرون القلاقل والانشقاق.

وعندما واجه عبد الرحمن الناصر الموقف، لا بوسائل الأمن العسكرية التى يتطلبها الموقف فحسب، وإنما أيضًا بقراره اتخاذ لقب الخليفة السامى، كان قد خلق من إسبانيا الإسلامية بلدًا جديدًا، وأقام مملكة متينة البنيان، تحررت من آخر ما كان يربطها ببقية العالم الإسلامى، دولة عظمى كان على جيرانها من دول أوربا المسيحية أن يتعاملوا معها ويتفاوضوا، ومن ثمَّ انفتح باب جديد للتحالفات السياسية، والمبادلات الصناعية وأيضًا، وكما هو متوقع، أمام تجارة الأفكار، ولعبة التبادل بين التأثيرات الحضارية.

وكا الحكم الثانى، أو المستنصر، ابن عبد الرحمن الناصر وخلفه، الراعى العظيم لهذا التقليد الثقافى، الذى شجّعه والده من قبل، على نحو ما سنرى فيما بعد، وقد تولَّى العرش كبيرًا، ومن ثَمَّ كانت مدة خلافته قصيرة، وكان الدكتاتور المنصور بن أبى

عامر، أو المنصور فحسب، وهو الاسم الذى شَهِر به فى مدوّنات إسبانيا المسيحية، وأغانيها الرقيقة، رجل التوسع الأموى بلا مراء، وأعظم أبطاله فعالية. وفى ظل حكمه الفعلى بلغت قوة إسبانيا العربية ذروة توهجها فى العالم الغربى.

ولّما تمض بضع سنوات على وفاته، فى مطلع القرن الحادى عشر، وبسبب تدخل القواد البربر والموظفين الصقالبة، فى إدارة شئون الدولة على نحو واضح، اشتعلت الحرب الأهلية فجأة وبعنف لم يسبق له مثيل*، وأتى إعصارها وإلى الأبد على الدعائم القوية للبناء الذى أقامته الأسرة الأموية فى الأندلس.

ومع انتشار عقد الخلافة بدأت تتكوّن فى كل المدن الكبرى، على امتداد شبه الجزيرة، إماراتٌ صغيرة مستقلة، على رأس كل منها أمير، وُعرفت باسم «ملوك الطوائف» وسرعان ما أمسك بعضهم بخناق بعض، والأقوياء منهم يغيرون على أراضى الضعفاء، ويضمونها إلى إمارتهم، أو يخضعونهم لتبعية مُهينة، ذات تكاليف باهظة.

وفى الوقت نفسه بدأت حركة «الاسترداد» المسيحية تتقدم بطيئة، ولكن فى عناد وإصرار، وقد عرف أواخر الأمويين وأوائل

* درست هذه الحرب بإفاضة فى كتابى: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، فى الفصل. «فتنة البربر» ص ١٠٣ - ١٣٤، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢.

العامريين، بما كانوا عليه من قوة، كيف يقفون فى وجهها على امتداد قرن كامل، وأفاد من هذا الوضع المضطرب أمير قشتالى عظيم، وهو ألفونسو السادس، وتوارت أمجاده ظلًا وراء شهرة قائده المتمرد **السِّيد القنبيطور**[٧]*. لقد عرف ألفونسو كيف يفيد منه كل ما أمكنه، فى مهارة عظيمة وصلابة لا مثيل لها، وفى عام ٤٧٨ هـ- ١٠٨٥ م سقطت فى قبضته مدينة طليطلة، عاصمة القوط القديمة، وأصبحت من ألمع مراكز الحضارة الإسبانية العربية إشعاعا، وباستيلاء ألفونسو السادس عليها عادت، وإلى الأبد، مسيحية من جديد[٨].

وعلى النقيض مما يمكن أن يتوقعه المرء، لم تكن الثقافة الأندلسية يومًا أشد إشعاعًا، وأقوى خصوبة، كما كانت عليه فى القرن الحادى عشر الميلادى، وكان حافلا بالاضطرابات السياسية، وهزته حتى أعماقه المنازعات الداخلية، وتقدمُّ حركة الاسترداد المسيحية فى إصرار. وأدت النشاطات الفنية والأدبية التى ازدهرت فى العواصم الإقليمية إلى سقوط قرطبة النهائى تقريبًا. وتحوّلت بلاطات الملوك المسلمين فى طليطلة وبطليوس وبلنسية، ودانية، والمرية، وغرناطة، وفى إشبيلية بخاصة إلى

---

* راجع تاريخ السيد القنبيطور ودوره فى تاريخ الأندلس فى كتابنا: ملحمة السِّيد، دراسة مقارنة، دار المعارف، الطبعة الثالثة؛ القاهرة ١٩٨٣، وهى الدراسة الوحيدة لشخصيته فى اللغة العربية فيما أعلم.

منتديات أدبية، حيث يتحلق الشعراء والأدباء، والفنانون والعلماء والفلاسفة والأطباء وعلماء الطبيعيات والإحياء، فى ظروف مادية مواتية، وفى رعاية أمراء تميّزوا بالثقافة، وأشربوا حب العلم والأدب، ويجدون فى صحبة من أشرنا إليه خير عزاء عن مشاغلهم اليومية فى إدارة شئون الدولة، لقد كان حقًا عصر انحطاط سياسى عميق، ولكن صحبته فى الوقت نفسه حركة تجديدية واسعة لا مثيل لها، شملت كل إبداع الفكر، ولدينا أمثلة أخرى كثيرة، سواء فى داخل العالم الإسلامى أو خارجه.

كان لخبر **سقوط طليطلة** فى يد المسيحيين وقع الصاعقة فى المحافل الأدبية التى تحلقت حول عروش أمراء الطوائف، وكان نذير شئوم أرعب الأمراء المسلمين، وقد بددوا قواهم فى الصراع الدموى مع بعضهم البعض، وأتوا على قوتهم الحربية، وأثقلوا كامل رعاياهم بالمغارم والضرائب الفادحة، وفجأة بدا لهم المغرب فى ثوب المنقذ الذى يضرعون إليه، وما أكثر ما نظروا إليه من عل، بلدًا ثانويًا متخلِّفا، يجىء بعدهم فى مضمار الحضارة، وليست له من فائدة إلا أنه يمدهم بالجنود المرتزقة التى تحتاجها جيوشهم. وكان **المرابطون**، وهم صحراويون قادمون من المناطق القاحلة فى موريتانيا، وقد أكملوا من قريب إنشاء إمبراطوريتهم، التى حملت اسمهم، وأكمل أميرهم **يوسف بن تاشفين** فى تلك الأيام فتح المغرب وتنظيمه من جديد. وقد اضطر الأندلس،

طائعًا أوكارها، ومشمئزا فى كل الأحوال واقعًا، أن يتوجه إلى هذا الأمير متوسلا يطلب العون، لكى يدفع الخطر المسيحى القادم، وبدا داهمًا كما لم يكنه يوما.

ويمكن القول إن هذا العمل كان ثأرًا سياسيا من إفريقية المسلمة أخذت به من إسبانيا الإسلامية، وفى الوقت نفسه سجّل فى مجال الحضارة بداية امتداد جديد للثقافة الأندلسية، وكانت فى قمة توهجها، على نحو لم تشهده من قبل، فبسطت ظلها على كل المغرب، وقد قبل يوسف بن تاشفين أن يعبر مضيق جبل طارق إلى إسبانيا، ليعاون الأمراء المسلمين فى محنتهم، وأوقع بالقوات المسيحية هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاقة، فى ٢٥ من أكتوبر عام ١٠٨٦م = ١٢ من رجب ٤٧٩ هـ، أى بعد سقوط مدينة طليطلة فى يد ألفونسو بما يقرب من عام، غير أنه من جانب آخر لم يعرف كيف يستغل هذا النصر فى الحال، ليوجه الضربة الحاسمة إلى المسيحية نهائيًا.

كان لانتصار المسلمين فى هذه الموقعة رد فعل هائل، تردد صداه فى أنحاء شبه الجزيرة، وتبادل أمراء الطوائف التهانى فيما بينهم، وفاضت قرائح الشعراء بقصائد المديح، وعاد المنقذ المغربى إلى دياره مظفرًا. وبعد شهور قليلة من رحيله شن المسيحيون هجومًا جديدًا، اضطرت معه إسبانيا الإسلامية إلى دعوة المرابطين من جديد، وعاد يوسف بن تاشفين فعلا، وفى

هذه المرة أزاح كل هؤلاء الأمراء الأندلسيين الصغار عن عروشهم وضم إماراتهم إلى إمبراطوريته، وكان **المعتمد بن عباد ملك** إشبيلية الشاعر أول من أزيح عن عرشه، وأمضى بقية حياته فى المنفى جنوبى مراكش، حزينًا وبائسًا. وأصبحت الإمبراطورية القرطبية القديمة ولاية جديدة فى إمبراطورية المرابطين. ومنذ ذلك الوقت، وحتى نهاية القرن الحادى عشر، سقطت الأندلس سياسيًا، ولم تعد غير جزء من دولة الإسلام الكبرى، التى شملت الغرب كله، ولم تعد عاصمته قرطبة أو إشبيلية، وإنما فى مدينة مراكش.

وقد شهد حكم الأمير المرابطى الثانى، **على بن يوسف بن تاشفين**، أَسْبَنَة الإمبراطورية المغربية بقوة وعلى مدى واسع، وربما أكثر مما كان عليه الأمر فى عهد والده، وأعاد هذا الأمير المنحدر من أم أندلسية تقليد الجهاد ضد الكفار، والذى استخدم بنجاح كبير مع نهاية القرن الحادى عشر فى شِبْه الجزيرة الإيبرية، وأدَّى مجرَّد ظهور قوات المرابطين على الحدود الإسلامية إلى ثقة السكان بأنفسهم، وأعطاهم لونًا من الأطمئنان لم يعرفوه من قبل.

وخلال مرحلة السلام هذه عاد الأندلس ثانية يستمتع بالحياة ويهتم بالحفاظ على هيبته وتأثيره الثقافى، لا فوق أرضه فحسب، وإنما فى بقية مقاطعات سادته الجدد، ويومها عبر مضيق جبل طارق إلى المغرب كثيرون من الإسبانيين، واتخذوا مقامهم بجوار

أمير المسلمين، وجعلوا من البلاط البربرى الصغير فى مدينة مراكش مركزًا أدبيًا مرموقًا، وموطنًا علميًّا مشرقًا، جديرًا بأن يقارن بما كان عليه البلاط الأموى المتوهج فى قرطبة العاصمة وفى عواصم الأقاليم فى شبه الجزيرة، خلال أيام خلت، ولم يكن أمير المرابطين يفارق، ولا للحظة واحدة، حاشيته من الكتّاب والفقهاء الأندلسيين، وأصبحوا سريعًا أكثر مستشاريه السياسيين نفوذًا. وكان أولئك وهؤلاء دائمًا، وعلى الرغم من بُعدهم عن وطنهم، روادًا متحمسين، ودعاة نشطين للثقافة العربية الإسبانية التى ائتمنوا عليها، وكانوا خير من يمثلها.

وسرعان ما غطت هذا المشهد إظلالة قاتمة، ذلك أن الفقهاء الإسبان فى بلاط المرابطين أشركوا الأمير معهم فى تمسكهم التقليدى بمذهبهم الفقهى، وقد جمد كثيرًا على حين كان الإسلام فى المشرق ساعتها يتطور على نحو ملحوظ، متجاوزًا حرفية النصوص، لا روحها، فيما يتصل بالعقيدة، وحيث نلتقى بمفكر عظيم كالإمام **الغزالى** لا يتردد فى أن يسمى أهم مؤلفاته «إحياء علوم الدين»، وأدت محاربة هذه الاتجاهات إلى نشأة وانتصار **حركة الموحدين** فى وقت سريع، وقامت فى أساسها على الدعوة إلى الإصلاح الدينى والخلقى، وإنْ كانت تهدف مباشرة إلى الدفاع عن خطط وغايات ذات طابع سياسى.

ولم تقف إسبانيا الإسلامية موقف اللامبالاة من هذه الأحداث

التى أشاعت فيها إحساسًا عابرًا بالاستقلال، وأدت إلى سقوط المرابطين وقيام حكم الموحدين الجديد، ولم يكن هذا فى الحقيقة بالنسبة لها، غير مجرد الانتقال من نظام إلى نظام، فقد كان سادة الأندلس الجدد من الأفارقة أيضًا، وقد تأسبنوا على نحو سريع للغاية، شأنهم فى ذلك شأن نظام المرابطين الذى سبقهم وأسقطوه وقاموا على أنقاضه.

وسجل **الموحدون** كالمرابطين من قبل، مآثر انتصاراتهم فى إسبانيا الإسلامية، وأخضعوها دون عناء كبير، وبسطوا عليها مذهبهم فى التشريع، وطريقتهم الخاصة فى الحكم، ولكن حركة «الاسترداد» المسيحية كانت تتقدم على نحو محسوس حينئذ فى جنوب شبه الجزيرة؛ بفضل الجهود الموحدة التى بذلها كل من ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وألفونسو السابع ملك أرجون، ولكن جيوش المسلمين سجلت فى يوم الأربعاء ١٨ من يولية عام ١١٩٥م = ٩ من شعبان عام ٥٩١ هـ انتصارًا باهرًا فى معركة الأرَك Alarcos وكان هذا آخر انتصار مهم حققه الإسلام فى معركته مع المسيحية على بطحاء شبه الجزيرة، وبعد ذلك بسبعة عشر عامًا؛ أى فى عام ١٢١٢م = ٦٠٩ هـ؛ ثأر المسيحيون لهزيمتهم فى وقعة العقاب، أو Las Navas de Tolosa كما تسميها المصادر المسيحية، وكانت هذه بداية سلسلة من الانتكاسات الإسلامية القاسية.

كان **الموحدون** كأسلافهم المرابطين، إن لم يتفوقوا عليهم، بناة عظامًا فى إسبانيا وفى المغرب على السواء، ومدينتا مراكش والرباط من صنعهما، فى جانب منهما، وفى إشبيلية، مدينتهم الأندلسية المفضلة، تركوا وراءهم من روائع الآثار «الخيرالدا» والبرج الذهبى. وكل آثارهم ثابتة الدعائم، توحى بالجلال، وشيدت على نحو رائع متناسق، عابسة وعارية من الزخارف، وخلت من العبارات التى تطرى الأمير، أو الأمراء عادة، ولم تسمح من النقوش إلا بآيات قرآنية مناسبة تمتد عرضا على شكل أفاريز[١٠]. وهذه الآثار هنا أو هناك من عمل مهندسين معماريين من الإسبان المسلمين، ولدينا الدليل على ذلك. وهى أيضًا دليل رائع، وخالد على مر القرون، على تأسُّبن الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط، وعلى مركز الصدارة الذى عرفت الثقافة الأندلسية كيف تحتفظ به فى كل الأوقات.

ولم يدم تألق **الموحدين** طويلا بعد حكم الأمير **عبد المؤمن ابن يعقوب**، **ويعقوب المنصور**، وأيامهما المجيدة، وبعد وفاة العاهل الأخير منهما لم تجد حركة «الاسترداد» المسيحية فى إسبانيا صعوبات كبيرة تقف فى وجهها، وما لبثت الفتن داخل الأسرة الحاكمة نفسها أن أدت إلى كثير من الإضطرابات الخطيرة على امتداد الإمبراطورية، ولم يتخلف الاندلس، وهو مقاطعة منها فى الثورة عليهم. ومرة أخرى تكونت إمارات إسلامية صغيرة فى

جنوب وشرق شبه الجزيرة فى بلنسية، وفى مرسية، وفى نبلة، على حين كانت القوات المسيحية تواصل انتصاراتها المدوية، انتصارًا وراء آخر.

وفى عام ١٢٣٦م سقطت قرطبة العظيمة عاصمة إسبانيا العربية، وقاعدة الخلافة الأموية الشهيرة، فى يد فرناندو الثالث وبينما ملك قشتالة هذا يُخضع لحكمه مملكة مرسية الإسلامية، ويحاصر إشبيلية، وانتهى الأمر باستسلامها عام ١٢٤٨م = ٦٤٥ هـ، كان خايمه الأول، أو جاقمه كما تسميه المصادر العربية القديمة، ملك أرجون يحتل الجزائر الشرقية، أو جزر البليار كما تسميها المصادر الإسبانية، ويستولى على مملكة بلنسية العربية، وتقلص الإسلام فى إسبانيا فلم يبق له من الأرض غير إمارة صغيرة محصورة فى حدود مقاطعة غرناطة، وفيها أسس بنو نصر، وهم ينحدرون من أصول عربية، مملكتهم الصغيرة قريبًا من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

ورغم أن كل أمراء غرناطة تقريبًا كانوا يتسمون بالضعف، ويتمتعون بسلطة مزعزعة، عرفت المملكة حياة ثقافية مترعة، وبخاصة على امتداد القرن الرابع عشر الميلادى، سواء فى العاصمة غرناطة، أو فى مدينتيها الكبيرتين: مالقة والمرية. وأقبل أمراؤها بحب فى الوقت نفسه على إنشاء روائع الفن الإسبانى العربى الخالدة التى لا مثيل لها، وذكر اسمها مجردًا يثير عظمتها

واضحة فى أعماقنا، وهما الحمراء وجنة العريف*، وتجسم الأدب شعرًا ونثرًا فى شخص ابن الخطيب ومجموعة الأدباء والكتاب الذين أحاطوا به، بينما كان مفكر عظيم آخر، من أصل إسبانى، عبد الرحمن بن خلدون، يتأمل فى المغرب القضايا الاجتماعية التى سيطرحها، ويبحث لها عن حل فى مقدمته الشهيرة.

وسيمضى قرن كامل تقريبًا قبل أن يتمكن الملكان فرناندو وإيزابيل من وضع نهاية سعيدة لحرب «الاسترداد»، وعندما فتحت لهما مدينة غرناطة أبوابها فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢م، ورُفعت راية شنت ياقب على قمة الحمراء، لم يكن هذا يعنى أن الحضارة العربية الإسبانية اختفت فورًا، وطواها النسيان، فالحق أنها واصلت سيرها وتأثيرها بعمق، وأكثر من ذلك، فإن هذا التأثير سلك طريقه حتى إلى إسبانيا المسيحية نفسها. واستمر قائمًا حتى طرْد الموريسكيين نهائيًا من إسبانيا، وحينئذ انتقلت مراكزها إلى شواطىء شمال إفريقية وبخاصة فى المغرب وتونس ولما تزل تحتفظ ببقية من إشعاعاتها حتى يومنا هذا.

ولهذا السبب فإن التقاليد الأندلسية ظلت حية متوهجة حتى الآن فى بعض قرى الساحل التونسى، وفى كل مدن شمال المغرب.

---

* لمزيد من المعلومات عن الآثار فى المدن الأندلسية يمكن الرجوع إلى: فون شاك، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

تقريبًا بخاصة، وربما بدت هذه التقاليد أبعد عمقًا وأشد تميّزا فى مدينة الرباط، عاصمة المغرب وتقع الآن على شاطىء المحيط الأطلنطى، وسكنها الموريسكيون الذين أخرجوا من ديارهم فى مقاطعة قرطبة من إسبانيا، فى القرن السادس عشر، والجانب الأكبر من الطبقة البرجوازية من سكان مدينة الرباط المسلمين يستخدمون ألقابا إسبانية خالصة، مثل : فرغس Vargas وبلامين Palamino وموربن Moreno، وروى دياث Ruy Diaz، ولو بث Lopez وبيريس Péres، أو منسوبين إلى مدن أندلسية فى شبه الجزيرة، مثل الرندى، نسبة إلى مدينة رندة Ronda، أو الدانى نسبة إلى Denia ومع أن مظهرهم الخارجى فى شوارع المدينة لا يتميز فى شيء عن بقية المغاربة الأصلاء، إلاّ أن نمط حياتهم فى داخل بيوتهم بقى محافظًا على طابعه الأندلسى. فزوجاتهم يلقين معاملة طيبة، ويشاركن فى المناقشات العائلية، ولا يعانين من وجود ضرة إلى جانبهن فى أكثر الأحوال تقريبًا، وطعامهن وطريقة إعداده تختلف اختلافًا بينًا عن طريقة إعداده فى بقية أنحاء المغرب، وكثيرًا ما يحتفظن له بأسماء ذات أصول رومانية.

وقد واصل هؤلاء المسلمون احتفاظهم بتقنية بعض المهارات الحرفية، وأظهرت دراسة مصطلحات المهن اليدوية فى المدن المغربية بوضوح أن جانبا مهما منها مصدره التقاليد الإسبانية، سواء ما انحدر منها من أصول رومانية أو موريسكية[11]. ومهما

يكن فهذه كلها شواهد لا يمكن معها أن نغفل التفكير فى أن بقاء العرب الطويل فى جنوب شبه الجزيرة الإيبرية ترك فيها طابعا بعيد الأثر، وبالطريقة نفسها يمكن القول أن تأثير إسبانيا ما زال يطبع حضارة المدن المغربية، وأسلوب حياة الطبقة البرجوازية من سكانها، فى كثير من جوانبها المختلفة، ولا تزال العلاقات بين إسبانيا وبقية المغرب الإسلامى، والتى امتدت قرابة أكثر من خمسة قرون، تواصل سيرها حية على نحو ما، حتى خارج نطاق التقاليد الفنية والأدبية، ومن الأوفق أن نشير إلى أن الجانب الغربى من شمال إفريقية بدأ يطوّر حاضره، ويحاول أن يتخفف من قديمه على نحو محسوس.

* * *

حاولنا فيما تقدم، خلال نظرة عاجلة، أن نستخلص المراحل الكبرى فى تاريخ الحضارة العربية الإسبانية خلال العصور الوسطى، وأن نضعها فى مكانها من الإطار السياسى والاجتماعى، الذى تكوّن الغرب الإسلامى فى نطاقه شيئًا فشيئًا، ثم فرض نفسه، وأحس تدريجًا بقوته وحيويته. وربما كان من العبث أن نزحم الآن مجرد صورة مجملة، بخليط من المعلومات نختارها من بين تلك التى نملكها عن النتاج المتواصل للثقافة التى تمثلها هذه الحضارة؛ لأنها ستأخذ بالضرورة شكل قوائم بأسماء المؤلفين وعناوين الكتب، والأفضل من هذا دون أدنى شك ألا نعرض من

بين هذا النتاج إلا لتلك المؤلفات الأبعد أثرًا؛ والأعظم شهرة، فى مجالات الفن والفكر، عندما ندرس تأثير العالم الاسلامى المشرقى فى الثقافة العربية الإسبانية مباشرة، أو عن طريق غير مباشر؛ وأيضًا التأثيرات التى يمكن بدورها أن تكون تلقتها من أوربا المسيحية؛ أو على الأقل تحديد التأثيرات التى مارستها بدورها إسبانيا العربية على العالم الغربى[١٢].

وعلى هذا النحو، فإن الأسماء الكبرى وذكرها لا ينفصل عن دراسة الحضارة، تكون أقل عُزْلةً مما لو جاءت فى عرض جاف للوقائع التاريخية، يمكن أن يهبط سريعًا بحماسة القارئ، ويدفع بالملل إلى أعماقه، فيصرفه عن القراءة وينتهى بها الأمر إلى أن تصبح مجرّد وثائق لا قيمة لها خارج هذا النطاق. ويصبح من الجرأة حينئذ أن نحاول تبيان الصفات الأصلية التى تنطوى عليها هذه الحضارة، دون أن نظهر فى الوقت نفسه ما كانت تمثله التقاليد الكلاسيكية المشرقية العظيمة فى إسبانيا، وظل هذا البلد متمسكا بها فى دقة، وحريصًا عليها بقوة، وانعكست دومًا فى الجانب الأكبر من فروع المعرفة التى تلقاها، والتى غرسها ونماها.

وللسبب نفسه سوف نقتصر الآن أيضًا على دراسة موجزة لآداب الطبقة العالية، التى وعت قيمتها الحقيقية، وبفضل أقلام بعض الذين يمثلونها، ولقرون بعيدة، بلغت الثقافة الأندلسية قمتها. وهذه الآداب العالية لم تحقق ما بلغته من علوّ الشأن على

أرض الغرب الإسلامى فحسب، وإنما أسهمت أيضًا على نحو لم يتوقف بالجهد التأملى الضخم، وكانت حصيلته هذا النتاج الهائل من الأدب العربى على امتداد العصور الوسطى.

وعندما نأخذ فى الاعتبار وجهة النظر الأخيرة هذه بخاصة، من الضرورى أن نشير إلى أنها لم تكن بمنأى عن الاهتمامات التى شغلت بعض المسلمين الإسبان، ممن ينتمون اجتماعيًا وأصولا إلى طبقة المولدين، والذين عانوا فى بعض الأوقات من متاعب التفرقة العرقية، على يد مواطنيهم الأندلسيين الذين ينحدرون من أصول عربية خالصة، ولم يتوقف الأمر بهؤلاء المسلمين الجدد عند الحفاظ على أصولهم فحسب، وإنما كانوا إلى حد ما يفخرون بها، ورأوا أنفسهم أبطال السنة الإسلامية، وبهم وحدهم لاذ التفوّق فى لغة القرآن، ورفضوا أن يعترفوا لممثلى العنصر العربى الأصيل بأية صدارة روحية.

أثارت هذه المشكلة ما عرف باسم «**حركة الشعوبية**» وتفجرّت على نحو ما حيث امتدت دولة الإسلام، وأخذت أشكالاً متباينة تبعًا لطبيعة المكان، وارتبطت أحيانًا بمطامح ذات طابع سياسى أو دينى، كما نجد عند الخوارج والفرس. وقد أظهر جولد تسيهر فى دراسة جيدة نشرها فى نهاية القرن الماضى، كيف امتدت هذه الحركة الشعوبية حتى بلغت إسبانيا الإسلامية، وكيف تشكلت فيها وتطورت[١٣].

وقد دار حوار أدبى حول قضية **الثقافة الأندلسية**، فى القرن الحادى عشر الميلادى، بين الأندلسى **ابن غرسية** وبين العديد من معارضيه، وهم من مواطنيه أنفسهم، وأورد لنا **ابن بسام** القضية فى كتابه الكبير «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»*، واحتفظ لنا بنصوص هذه المناظرات، ومن المحتمل أن موضوع «فضائل العرب وفضائل العجم» أتاح الفرصة فى إسبانيا، فى مناسبات أخرى، لحالات شبيهة من الحوار تدور حوله، وكل هذا يبرهن لنا، بقوة فائقة، على أن الحضارة العربية الإسبانية وُلدت فى عمق تناسق سعيد من إضافات الكلاسيكية المشرقية، ومن عناصر جديدة مصدرها البلد نفسه، وعلى الرغم من إطباق العبقرية العربية عليهم، كان بينهم من يزهو بماض مجيد، وبتقاليد ثقافية، شهدتها إسبانيا قبل مجىء الإسلام.

وقد شهد المفكر العظيم **ابن حزم** سقوط حكم الأسرة الأموية، واتخذت من قرطبة عاصمة لها، ووجد نفسه مدعوًّا خلال حياته العاصفة والخصبة إلى اتخاذ موقف من هذا الصراع، ولو أن موقفه كان على نحو مختلف قليلا، فرد على النقد الذى وجهه كاتب مغربى من القيروان عاب على أهل الاندلس تقصيرهم فى «تخليد أخبار علمائهم، ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم»، ورسم لنا ابن

* انظر دراساتنا لكتاب الذخيرة لابن بسام فى كتابنا: دراسة فى مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

حزم فى رسالته[١٤] بهذه المناسبة صورة مجملة ومفيدة لمختلف ألوان الإبداع الإسبانى العربى فى مختلف مجالات الفكر أتى فيها على ذكر المؤلفات الهامة، وأشار فى فطنة حادة إلى قيمتها، والتى اتخذ منها الأندلسيون حتى أيامه فى مجال المعرفة، دينية أو دنيوية، العمد التى أقاموا عليها بناء الأدب العربى فى شموخه وروعته.

كما رأينا، كان الهجوم الذى صدّه ابن حزم قادما من القيروان، وهى تجربة لا يجب أن تمّر بنا ونحن غافلون، لأن أفريقية، أو تونس الحديثة إذا شئت، ومدنها الكبرى، لم تسع خلال العصور الوسطى إلى توثيق علاقاتها الثقافية المشتركة مع أقصى الغرب الإسلامى أعنى المغرب وإسبانيا، لأنها أقرب إلى المشرق، وإلى مصر بخاصة، وظلت تولى وجهها دائمًا نحو المشرق، وأدارت ظهرها للغرب الإسلامى، وكان عليها ان تنتظر حتى القرن الثانى عشر لتشهد مع قيام ظروف سياسية جديدة، ظهور التقاليد الإسبانية الموحدية فى أرضها، لأول مرة، وتأصلها، ثم تعمقها فيما بعد على يد الحفصيين أولا، وبهجرة أعداد كبيرة من الموريسكيين إلى أرضها أخيرًا، عندما طردهم من شبه جزيرة إيبريا وطنهم فيليب الثالث عام ١٦٠٩.

وفى مثل هذه الحالة، وأعانت عليها الظروف الجغرافية العادية، أصبحت الجزائر بسلاسل جبالها، وامتداد بطاحها بين تونس والمغرب، مهيأة لأن تلعب فى أغلب الأحوال دور المنطقة

الوسيطة فحسب، تتلقى التأثيرات بالتناوب، بعد صقلها، من فاس أو القيروان، والآثار القائمة حتى اليوم على طرفى بلاد البربر كافية، إذا كان ذلك ضروريًا، للبرهنة على هذا التباين العميق، فالمسجد الجامع فى القيروان من جهة، ومساجد قرطبة ومراكش أو فاس من جهة أخرى تظهر، بقدر ما تسمح به المقارنة بين أعمارها المختلفة، وبالرغم مما بين زخارفها من بعض مظاهر القربى، بأن حظها من التشابه الممكن محدود، كما أن المناخ مختلف، والبلد ليس واحدًا.

لقد كانت الأسر الإسلامية المالكة القديمة فى أفريقية تحس دائمًا فى أعماقها بأنها مشرقية تمامًا، مهما كانت أصالة الحضارة التى ساعدت تلك الأسر على ازدهارها، وأظهرت دوما استخفافا كاملا، واحتقارًا ظالمًا، وفى بعض الأحايين غيرة شديدة، لكل ما يأتى من إسبانيا، وحرص **بنو الأغلب** فى البداية على أن يجعلوا من عاصمتهم مقرًا يطاول ما أقام العباسيون من مؤسسات، وعندما أتى عليهم زحف الفاطميين العارم، الذى لا يقاوم، جدّد هؤلاء التقاليد الثقافية القديمة الخاصة بإفريقية وصقلية، وتوسعوا فيها. وواصل الزيريون هذه التقاليد، والمعزّ من بينهم بخاصة، وهو أعظم ملوك هذه الأسرة، وسوف تتألق فى الوقت نفسه، وبقدر أعظم من البهاء فى مصر، ابتداء من النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى. أما بقية الغرب الإسلامى، المغرب

الأوسط والمغرب الأقصى بخاصة، فكان عليه أن يعانى من التأثيرات الإسبانية، واتخذ تحت ضغط الظروف موقفًا مختلفًا عن موقف أفريقية، ومع ذلك نلحظ فى بعض المناسبات أن المرابطين والموحدين، وهم من البربر، عندما أصبحوا سادة شبه جزيرة إيبريا الإسلامية، إن لم يعملوا على رفض الوصاية الإسبانية عليهم، فقد حاولوا على الأقل أن يضعفوا من شأنها.

ومع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى كان صدى الانتصار القريب فى **وقعة الأرك** يبرر فى الغرب الافتخار بالدفاع عن الوطن على طريقة المفاخر العربية، ونجد شاهدًا عليها فى المحاولة التى جرت بين أديبين أحدهما إفريقى والآخر من أصل قرطبى. وحفظت لنا المدونات نص رسالة المدافع عن الثقافة الاندلسية كاملا[١٥]، وتستحق منا دراسة آنية، قبل أن ننهى هذه السلسة من ملاحظاتنا عن الغرب الإسلامى، والحضارة العربية الإسبانية، لأنها وثيقة ذات أهمية بالغة، وإذا صرفنا النظر عن المبالغات التى انطوت عليها، والمتحيزة أحيانًا، فهى تقدم لنا أدق اللوحات الشاملة المعاصرة، وأفضل ما نملك شمولا عن البناء الاجتماعى، والنشاط الثقافى، فى إسبانيا العربية، وتظهر لنا فى الوقت نفسه أنه حتى فى تلك الفترة، والمتأخرة نسبيًا، كان الأندلس يستشعر تفوقّه بعمق.

يروى المقَّرى التلمسانى، صاحب كتاب «نفح الطيب» نقلا

عن **ابن سعيد**، أن والد هذا أخبره، أنه كان يومًا فى مجلس صاحب سبتة، **أبى يحيى بن أبى زكريا**، صهر ناصر بنى عبد المؤمن، فجرى بين **أبى الوليد الشقندى**، وبين **أبى يحيى ابن المعلم الطنجى** نزاع فى التفضيل بين البرين، وإزاء إصرار ابن المعلم على تأكيد تفضيل شمال إفريقيا سياسيًّا، صاح الشقندى فى وجهه: «لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة».

ولكى يضع الحاكم الموحدى لمثل هذا الحوار حدًّا طلب إلى الأديبين أن يعمل كل واحد منها رسالة فى تفضيل بره، وفى هذه الظروف، وهى ثابتة تاريخيًّا دون أدنى شك، ألف الشقندى رسالته، ووصلنا نصها كاملا لحسن الحظ*.

بدأ الكاتب الأندلسى رسالته مذكرًا بمآسر الدولة الأموية فى آسيا وإفريقيا، ويعلن بأن المقارنة بين الوقائع، وهو يعرفها تمامًا، تؤكد بسهولة تلاقيها مع جلائل أعمال الموحدين، وينتصف لأمراء الطوائف، فى القرن الحادى عشر الميلادى، ويعطيهم حقهم، ويقول عنهم أنهم «نفقوا سوق العلوم، وتباروا فى المثوبة على المنظوم والمنثور» ويخص من بينهم بنى عباد ملوك أشبيلية بالمقام

---

* يوجد فى نفح الطيب للمقرى، ج٣ ص ١٨٦-٢٢٢، طبعة إحسان عباس. (المترجم)

الأول، وهو فيما يرى «كان لهم من الحنو على الأدب، ما لم يقم به بنو حمدان فى حلب»، وصوّر تلك الحقبة الزاهرة، وفيها كان الأمير الشاعر **المعتمد بن عباد** محور حلقة تلتف حوله، وتزهو بطائفة من كبار الشعراء والكتاب، أمثال: ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن عمار.

ثم يتساءل: أنىَّ للمغرب أن يزهو بفقهاء مثل ابن حبيب، أو بمفكرين مثل ابن حزم، أو ابن رشد، أو ابن باجه، أو بأطباء مثل ابن زُهر، أو بمؤرخين مثل ابن حيان، أو بناثرين مثل ابن خاقان مؤلف كتاب «قلائد العقيان»، أو من مؤلفى كتب المختارات مثل ابن بسام، وأخيرًا بين الملوك مثل المعتمد بن عباد.

هل أنجب شمال أفريقيا شعراء قادرين على تزيين الموضوعات التقليدية، أو الإلهامات المحلية، بالوشى الرقيق، وتلوين الاستعارة بوضعها فى قوالب جديدة، تنطوى على المرأة المحبوبة، وتومئ إليها فى الوقت نفسه، ويصفون نضرة الحدائق، والمياه الجارية، وعذوبة الأسحار، وروعة الأصائل؟

وأنىَّ للمغرب أخيرًا القادة الذين يلاحقون العدو المسيحى بلا هوادة، فيملأونه رعبًا، وينتزعون إعجابه؟.

ويمضى الكاتب بعد ذلك يعدد مدنا إسبانية كثيرة وأصبحت منذ القرن الحادى عشر مراكز للثقافة، بعد أن فقدت قرطبة عاصمة

الأمويين منزلتها عاصمة علمية للجميع. يذكر إشبيلية ونهرها وزيتونها، ورياضها، وكيف كانت مصدر إلهام لشعراء كثيرين، وجيان وقلعتها الحصينة، وغرناطة ويسميها دمشق الأندلس، ومالقةُ المدينة التجارية، والتى اشتهرت بنتاجها من التين، وخُصت بطيب الشراب، الحرام منه والحلال، والمرية، وهى ميناء نشط، مزدحم بالسفن التجارية قبل أن تعود إلى موانيها، فى بيزة أو جنوة أو البندقية أو الإسكندرية، محملة بالأقمشة الثمينة، ومرسية مدينة الزهور، وأخيرًا بلنسبة وبحيرتها التى تتلألأ عليها أشعة الشمس المنعكسة فى بهاء وبهجة.

من هنا يمكن أن ندرك لهجة الزهو، وهى طبعًا أقل نشازًا فى النص العربى منها فى أية ترجمة، وهى تلزم خط الدفاع منذ البدء وحتى النهاية، وهو فى الوقت نفسه هجوم عنيف على خصمه، ومن خلال الأسلوب الذى اتخذه الكاتب علينا أن نرد الرسالة إلى حجمها الحقيقى، ومن الضرورى ألا نتجاهل المدى العميق للصيحة العنيفة المحقَّة، التى أدت إلى إنشاء هذه الرسالة: «لولا الأندلس لم يُذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة»!

إلى هذا القدر لحظ الناس فى تلك الأيام النائية، أن هذين البلدين قريبين أحدهما من الآخر كل القرب، وأنهما فى هذه العلاقات الضرورية والدائمة، يصبح أحدهما من جرّاء ضعفه السياسى المتزايد تابعًا للآخر على نحو ما، ولكنه فى مقابل ذلك

حافظ باستمرار على تقاليده الحضارية سليمة، فإذا كان صحيحًا أن إسبانيا الإسلامية تحوّلت إلى مجرد تابع سياسى للمغرب، فمن الحق أيضًا أنها واصلت مع ذلك تطبيع المغرب بثقافتها وعبقريتها، وفى أنفة من يشعر أن السيادة الروحية له.

● الهوامش والتعليقات :

(١) ش. ديهل، بيزنطية : عظمة بيزنطة : عظمة وانحطاط، باريس، ١٩٢٠، ص ١.

(٢) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٨ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، صفحة ١٩.

(٤) انظر دراستى عن : تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة فى القرن التاسع الميلادى، فى مجلة بيزنطة، المجلد الثانى عشر، بروكسل ١٩٣٧، ص ٨-٩.

(٥) جود فروا - ديمومبين : النظم الإسلامية، باريس، ١٩٢٥، ص ١٣٥-١٣٦.

(٦) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٤٥ إلى ٤٧.

(٧) انظر مقالى عن : السيد فى التاريخ، فى المجلة، التاريخية، باريس، ١٩٣٧. [وقد ترجم المقال إلى اللغة العربية، ونشر فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس ص ١٦٥ - ١٩٨، ونشر فى القاهرة عام ١٩٥٦، فى سلسلة الألف كتاب.]

(٨) أنظر مقالى عن : ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥، فى مجلة هسبيريس، المجلد الثانى عشر، ١٩٣١، ص ٣٣-٤٩.

[وقد ترجم المقال إلى اللغة العربية ونشر فى كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس، من ص ١١٩-١٥٠، ونشر فى القاهرة عام ١٩٥٦، فى سلسلة الألف كتاب].

(٩) انظر مقالى : تأملات عن دولة المرابطين فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى، فى مجلد الاحتفال بمرور خمسين عاماً على تأسيس كلية الآداب فى الجزائر الجزائى ١٩٣٢، ص ٣٠٧، ٣٢٠.

(١٠) انظر: ليفى بروفنسال، نص تاريخى جديد: المسند لابن مرزوق باريس، ١٩٢٥.

(١١) وعلى الخصوص فى قرية تستور، وقد أفرد لها جورج مرسيه دراسة لما تزل تحت الطبع.

(١٢) انظر: ليفى بروفنسال؛ المغاربة وماضيهم، مجلة الفن الحى، باريس ١٩٣٠، ص ٨١٥-٨١٦.

(١٣) جولد تسيهر:

Die Sucubijja unter den Muhammedanern in Spanien, en la Zeitschrift der Deutscheu Morgeniandisehen Gesell 5 éhaft, t. Liii Págs. 601 a 620.

(١٤) توجد فى كتاب نفخ الطيب للمقرى، التلمسانى، وهو مصدر هام جدا، لأنه مجموعة من النقول، احتفظت لنا بصفحات طويلة اختارها المؤلف من كتب أندلسية لما تزل مفقودة حتى اليوم، وترجمته إلى اللغة الانجليزية وقام بها المستشرق الإسبانى بسكوال جيانجوس، يجب أن تستخدم فى حذر شديد، لأنها مليئة بالأخطاء.

[للدراسة نفح الطيب، ومعرفة منهجه وطبعاته، أنظر دراستنا عنه، فى كتابنا: **دراسة فى مصادر الأدب**، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥].

(١٥) توجد فى كتاب نفح الطيب للمقرى، وقد ترجمها إميليو غرسية غومث إلى اللغة الإسبانية، ونشرها فى مدريد، غرناطة، ١٩٣٤، وترجمها إلى الفرنسية أ. لويا ونشرها فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٢، ١٩٣٦، الصفحات ١٩٣٣-١٨١.